الفصل السابع

العودة الى التاريخ

او

البنيوية والتاريخ [1]

النقاش حول العلاقة بين البنيوية والتاريخ ، لم يكن في فرنسا وحدها ، بل في أوروبا وامريكا ، وربما حتى في اليبان ، نقاشا متعددا ، بل غالبا ماكان غامضا، وذلك لجملة من الاسباب يسهل عدها :

اولا ،لا أحد يتفق مع احد في تعريف البنيوية .

ثانيا ، كلمة التاريخ في فرنسا ، تعني شيئين مختلفين ، ما يتحدث عنه المؤرخون ، وما يقوم به المؤرخون في ممارساتهم .

ثالثا ، هو كون معظم الموضوعات والأهتمامات السياسية تقاطعت مع هذا النقاش حول علاقة البنيوية بالتاريخ .

واني لا أريد ان اقطع حديثي اليوم ، عن السياق السياسي الذي طرح فيه هذا النقاش .ففي البداية ، أو في الجزء الاول ، اريد أن اقدم الأستراتيجية العامة او خطة المعركة لهذا النقاش ، بين البنيويين وخصومهم حول التاريخ .

واول شيء تجب ملاحظته هو كون البنيوية ، وعلى الأقل في شكلها الأول ، كانت محاولة لتقديم طريقة او منهجية دقيقة وصارمة للأبحاث التاريخية . فالبنيوية لم تتنكر في بدايتها للتاريخ ، وانماارادت ان تقيم تاريخا يتميز بصرامة ونسقية اكبر .

وسأقدم ثلاث امثلة بسيطة على ذلك. اذ يمكن ان نعتبر العالم الامريكي "بواز" مؤسس المنهج البنيوي في الاتنولوجيا ، فماذا كان يعني بالنسبة له هذا المنهج ؟ لقد

---

[1] - **ملاحظة :** هذه ترجمة لنص المحاضرة التى القاها مشال فوكو بجامعة "كايو " باليابان في 9 اكتوبر سنة 1970 ، والتي صدرت في شكل مقال في فيفري سنة 1972 وتضمنها المجلد الثاني من اعماله التي جمعها "دانيال ديفار و فرانسوا اوالد " والصادرة عن دار غليمار سنة 1994 ، الصفحات من 264 الى 281 . ترجمة : الزواوي بغورة .بمجلة **ادب ونقد** ، العدد 147 ، نوفمبر 1997 .

كان بالاساس كيفية لنقد شكل من اشكال التاريخ الاتنولوجي القائم في زمانه . لق سبق ل"تايلور" ان قدم نموذجا لهذا التاريخ ، يرى فيه ان جميع المجتمعات البشرية، تنمو وفق المنحى التطوري الذي يبدء من الاشكال البسيطة لينتهي الى الاشكال المعقدة.وهذا التطور لايختلف من مجتمع الىآخر الابحسب وتيرة التحولات . في حين ان الاشكال الاجتماعية الكبرى ، مثل قواعد الزواج او الادوات الزراعية ، تكون مثل الانواع البيولوجية في امتداداتها ونموها وتطورها وتوزعها ، كما تخضع لنفس القوانين ومخطط النمو . وعلى كل حال فان نموذج تايلور لتاريخ وتطور المجتمعات ، هو نموذج مأخوذ من "داروين " ومن التطورية بشكل عام .

لهذا كان مشكل بواز هو في كيفية عتق الاتنولوجيا ، من هذا النموذج البيولوجي، والبرهنة على ان المجتمعات البشرية ، سواء كانت بسيطة او معقدة ، تخضع لجملة من العلاقات الداخلية التي تحددخصوصيتها ، هذه الخصوصية هي التي تحدد بنية المجتمع ، وبتحليلها ينشأ تاريخ للمجتمعات . فلا يتعلق الامر اذا ، وبالنسبة لبواز باقصاء النظرة التاريخية في صالح النظرة اللاتاريخية او المعادية للتاريخ بل العكس ، أي اقامة نظرة تاريخية للمجتمعات البشرية .

لقد اخذت مثالا من الاتنولوجية ، ويمكن لي ان اقدم مثالا آخر من الالسنية وتحديدا من علم الاصوات ، فقبل "تروبتسكوي " كان علم الاصوات التاريخي ، ينظر في تطور الصوت وفي سياق لغة معينة ، ولا يبحث في التحولات الكلية ، لحالة اللغة في لحظة ما . وما اراد القيام به تروبتسكوي هو تقديم وسيلة تسمح بتجاوز التاريخ الفردي الى تاريخ اكثرعمومية للنظام الصوتي للغة .

ويمكن لي ان اقدم مثالا ثالثا ، وسأعرضه باختصار شديد ، انه مثال يتعلق بالبنيوية في الادب . فعندما حدد "رولان بارط" مستوى الكتابة في مقابل مستوى الاسلوب او اللغة ، ماذا أراد ان يفعل ؟ لايمكن ان نفهم ذلك ، دون العودة الى وضعية دراسة تاريخ الادب في فرنسا بين سنوات 1950-1955 ، ففي هذه الفترة، كانت الدراسة تقتصر اما على التاريخ الشخصي للفرد ، وذ لك بتحليله نفسيا وتاريخيا منذ ولادته حتى نهاية اعماله ، او ان تتناول الدراسة التاريخ العام لحقبة ما او للمجموع الثقافي اوللوعي الجماعي .

في الحالة الاولى لانتعرف الا على الشخص ومشاكله الاجتماعية ، وفي الحالة الثانية لانحصل الاعلى مستويات عامة . وما اراد القيام به رولان بارط هو الكشف على مستوى خاص من خلاله يمكن ، اقامة تاريخ للأدب باعتباره ادبا ،

او باعتباره يملك خصوصية خاصة تتجاوز الافراد ، هذا من جهة امامن جهة اخرى فان المستوى الادبي، مقارنة بمختلف النتاجات الثقافية ، يشكل عنصرا خاصا يملك قوانين خاصة به وبتحولاته ، ومعنى هذا ان بارط بادخاله لمفهوم الكتابة ، اراد ان يؤسس امكانية جديدة وتاريخ جديد للادب.

وعليه ، فان مايجب الاحتفاظ به في الذاكرة ، هو ان مشاريع البنيويين باختلافها،سواء كانت انتروبولوجية او السنية او ادبية ، ويمكن قول نفس الشيء فيما يخص الدراسات الاسطورية وتاريخ العلوم ...الخ انها كانت محاولات لتقديم وسائل دقيقة للتحليل التاريخي .

الا انه يجب الاعتراف ، ان هذه المحاولة ، والتي لاقول انها فشلت وانما لم يتم الاعتراف بها كما هي ، وان مختلف خصوم البنيوية ، اتفقوا على الاقل حول نقطة واحدة ، وهي ان البنيوية تجاهلت التاريخ او انها ضد التاريخ.

يأتي هذا النقد من جهتين مختلفتين ، هنالك اولا نقد نظري ذو منبع ظواهري او وجودي ، والذي يلاحظ انه مهما كانت النية طيبة ، فان البنيوية اعطت الاولوية او الافضلية لدراسة العلاقات الآنية على حساب العلاقات التطورية او التعاقبية . فعندما يدرس البنيويون القوانين الصوتية ، فانهم يدرسون حالتها دون الأخذ بعين الاعتبار للتطورات الزمنية ، فكيف يمكن لنا ان ندرس التاريخ دون ان ناخذ بعين الاعتبار مفهوم الزمن ؟

بل هنالك اكثر من هذا ، اذ كيف يمكن ان نقول ان التحليل البنيوي تحليل تاريخي مادام يأخذ فقط بالتزامني على حساب التتابعي ، او يأخذ بالمنطقي على حساب السببي ، فمثلا "ليفي ستراوس " عندما يحلل الاسطورة ، فان ما يقوم به ، ليس معرفة من اين جاءت هذه الاسطورة ولا لماذا وجدت وكيف انتقلت وماهي الدواعي التي جعلت شعبا من الشعوب يروي هذه الاسطورة ولماذا جعلت شعبا آخر ينقلها ويحولها .

ان ما كان يهتم به ليفي ستراوس هو اقامة علاقات منطقية بين مختلف عناصر الاسطورة، وبطبيعة الحال ، ففي المجال المنطقي لايمكن لنا ان نقيم تحديد ات زمنية او سببية .

واخيرا هنالك اعتراض آخر ، وهوان البنيوية لاتهتم بالحرية او بالاحرى بالمبادرة الفردية ، فمايعارض به "سارتر" الالسنيون هو ان اللغة مجرد نتيجة او قمة تبلور النشاط الانساني الاساسي والاولي . فلو لم تكن هنالك ذات ناطقة ، تحول

اللغة وتغيرها وتستعملها ، فلولم يكن مثل هذا النشاط الانساني ، ولو لم تكن هنالك الكلمة في قلب النظام اللغوي ، كيف يمكن ان تتطور اللغة؟ إنه في الوقت الذي نتخلى فيه عن الممارسة الانسانية من اجل إظهار البنية وقواعدها ، نكون بداهة قد تخلينا عن التاريخ .

هذه الاعتراضات المقدمة من طرف الظواهريين والوجوديين، تم اعتمادها من طرف الماركسيين ، الماركسين الاختزالين كما اسميهم ، أي اولئك الذين تكون مرجعيتهم النظرية ليست الماركسية ذاتها وانما الايديولوجيات المعاصرة . وفي المقابل هنالك ماركسية جدية ، بمعنى ماركسية ثورية حقيقية ، حيث اعتراضاتها تقوم على ان الحركات الثورية التي حدثت في صفوف الطلبة و المثقفين لا علاقة لها بالحركة البنيوية.

ليس هنالك الا استثناء واحد لهذا المبدأ ، هو حالة "التوسير " في فرنسا . فهو الماركسي الذي طبق في قراءاته و تحليلاته لنصوص "ماركس" جملة من المناهج التي يمكن اعتبارها بنيوية ، وهي بدون شك تحليلات مهمة في التاريخ الحالي للماركسية الاوربية . وتعود هذه الاهمية ، الى كون التوسير حرر التأويل الماركسي التقليدي ، من كل نزعة انسانية وهيغلية وظواهرية ، وطرح امكانية جديدة لقراءة ماركس ، قراءة ليست جامعية ولكنها سياسية ، الا ان هذه التحليلات اصبحت متجاوزة من طرف حركة ثورية ، حركة تطورت في الاوساط الطلابية والثقافية ، والتي تعلمون انها حركة مناهضة للنظرية .

واكثر من هذا ، فان معظم الحركات الثورية التي تطورت في الوقت الحاضر، حركات قريبة اكثر الى "روزا ليكسمبورج" منها الى "لينين " حيث الاهتمام اكثر بعفوية الجماهير منه بالتحليل النظري .

يظهر لي ان التحليل التاريخي حتى القرن العشرين ، كان يهدف الى اعادة تكوين او تشكيل ما في الامم وما يتقاطع او يتمفصل مع المجتمع الصناعي الرأسمالي . هذا المجتمع الذي تأسس منذ القرن السابع عشر والثامن عشر في اروبا وفى العالم على اساس الامم الكبيرة . وكانت وظيفة التاريخ ، ضمن الايديولوجية البورجوازية ، هو اظهار كيف ان هذه الوحدات الوطنية الكبرى ، والتى تحتاتجها الرأسمالية ، جاءت من زمن بعيد ومن خلال ثورات مختلفة ، لتؤكد وتصر على وحدتها .

وأما التاريخ كتخصص، فان البرجوازية استطاعت بواسطته ان تبين اولا ان

سيادتها لم تكن الا نتيجة نضج طويل وشاق ، وفي هذا السياق فان هذه السيادة قد تأسست منذ فجر التاريخ . وثانيا تؤكد البورجوازية ، انه مادامت هذه السيادة ، تأتي من فجر التاريخ ، فانه والحالة هذه ، لايمكن تهديدها بواسطتها ثورة جديدة . وهكذا، وبالمرة ، تؤسس البورجوازية حقها في امتلاك السلطة ، كما لها الحق في التآمر على كل التهديدات المحتملة من قبل ثورة مرتقبة .

لقد كان التاريخ بالطبع وكما يسميه "مشلي" هو بعث الماضي . وكانت مهمته اعطاء الحياة للمجموع الكلي لماضى الامة . ان هذا التوجه والدور يجب ان يعاد النظر فيه ، اذا ما اردنا ان نقطع التاريخ من النظام الايديولوجي الذي ولد فيه وتطور ، يجب ان نفهم بان التاريخ هو تحليل للتحولات الفعلية للمجتمعات.وان المفهومين الاساسين للتاريخ ، ليس مفهوما الزمن او الماضى ولكن مفهوما التغير والحدث .

سأقدم مثالين ، الاول مأخوذ من المناهج البنيوية والثاني من المناهج التاريخية. الاول يظهر كيف ان البنيوية تحاول ان تعطي شكلا صارما لتحليل التغيرات ، والثاني يظهر كيف ان بعض مناهج التاريخ الجديد تحاول ان تعطي مكانة ومضمونا جديدا ، للتصور القديم للحدث .

عن المثال الاول سأقدم التحليلات التي قام بها "دوميزل" للخرافة الرومانية "هوراكو" ، وهنا على ما اعتقد ، نجد اول تحليل بنيوي لاكبر خرافة هندواوربية . ان هذه الخرافة المعروفة وجد حولها دوميزل العديد من الشروحات ، وفي مختلف البلدان ومنها ارلندا .

في ارلندا هنالك خرافة مفادهاان شخصا او بطلا، في صورة طفل يسمى"كيكيلان"، استقبل من الآلهة سلطة سحرية وقوة خارقة ، وفي يوم من الايام تعرضت مملكته الى تهديد من طرف الأعداد ، وعليه قررالذهاب في حملة لمحاربتهم ، وعندما وصل الى باب رئيس الاعداء ، بارز اول عدو فقتله،ثم تقدم فقتل الثاني فالثالث ، وهكذا ... وبعد هذه البطولات الثلاثة يمكن لكيكيلان ان يعودالى مملكته .

الا ان المعركة جعلته في حالة من الاستنفار ، وان السحر الذي تلقاه من الآلهة جعله يتقد حرارة ، حتى اصبح احمرا ناصعا ، ولو دخل الى المدينة وهو على هذه الحال ، لكان خطرا على الجميع .

ومن اجل ان يهدؤوا من هذا الغليان ، قرر مواطنوه بأن يبعثوا له بامرأة وهو

في طريق العودة . الا ان القدر جعل من هذه المرأة ، اخته وبما أن قانون تحريم زنا المحارم ، يمنع عليه مثل هذه العلاقة الجنسية ، لذا اضطروا الى وضعه في حمام بارد ، الا انه ونظرا لدرجة حرارته المرتفعة ، فان ماء الحمام نفسه اصبح ساخنا ، لذا وضع في سبع حمامات حتى تعود درجة حرارته الى حالتها الطبيعية ، ويتمكن بالتالي من العودة الى مملكته ، دون ان يشكل ذلك خطرا على احد .

ان تحليلات دوميزل تختلف ، عن تحليلات الاساطير المقارنة التي وضعت قبله في القرن التاسع عشر ، حيث هنالك مدرسة كاملة للأساطير المقارنة ، التي تحاول ان تبين التشابهات بين مختلف الاساطير ، وهكذا توصل بعض مؤرخي الأديان الى نفس اسطورة الشمس في مختلف اديان العالم . وعلى العكس من هذا، فان دوميزل – وهذا ما يجعل من تحليلاته تحليلات بنيوية – لا يقارب الخرافتين الرومانية والارلندية ، الا من اجل ان يقيم التفارقات بين الأولى والثانية وان يصنفها بشكل دقيق .

ففي حالة كيكيلان الارلندي ، البطل طفل وحيد ويملك سلطة سحرية ، اما البطل الروماني "هوراس" فهو شاب مسموح له برفع السلاح ، ولايملك سلطة سحرية ، وانما يتميز فقط بالذكاء والفطنة مقارنة بزملائه. وبالاضافة الى هذا فان هنالك مجموعة اخرى من الاختلافات ، ففي حالة الخرافة الارلندية البطل يملك سلطة سحرية تحولت الى خطر على مدينته ، اما في حالة الخرافة الرومانية ، فالبطل يعود الى مدينته منتصرا ، ومن بين الذين سيلتقي بهم شخص خان وطنه ، انها أخته التى انضمت الى اعداءروما ، وبهذا تم تحويل الخطر من خارج المدينة الى داخلها ، ولم يعد البطل هو حامل الخطر وانما شخص آخر مختلف عنه ، وان كان ينتمي الى عائلته .

واخيرا هنالك مجموعة ثالثة من الاختلافات ، ففى الخرافة الارلندية الحمامات هي التي تخفض درجة حرارة البطل ، اما في الخرافة الرومانية فهنالك طقس ، لاسحري ولا ديني وانما قانوني ، و هو في صورة دعوى قضائية متبوعة بمرافعة وتبرئة ، وبذلك يسترد البطل مكانته ضمن معاصريه .

تتميز اذا تحليلات دوميزل، بكونها تحليلات لاتقوم على التشابهات وانما على الاختلافات ولعبة الاختلافات ، كما انه لايقيم لها جدولا وانما نسقا من الاختلافات بتراتبها وتتابعها .فمثلا ، فى الوقت الذي يبين فيه ان البطل في الخرافة الرومانية ليس طفلا يحمل سلطة سحرية ، وانما جندي كبقية الجنود ،وفي هذه الحالة ، يتبين

ان البطل لايمكن ان يكون وحده في مواجهة الاعداء الثلاثة ، ذلك ان الانسان العادي حتى وان كان ذكيا فانه سيهزم لامحالة .

وعليه فان الخرافة الرومانية تضيف للبطل ، متعاونين آخرين كتوازن مع الاعداء الثلاثة . ولو كان البطل يملك قوة سحرية ، لاستطاع الانتصار على اعدائه بسهولة ، واما وانه مجرد رجل كبقية الرجال وجندي وان كبقية الجنودوجب مؤازرته ومساعدته بجنديين ، رغم ان انتصاره لايمكن ان يتحقق الا بنوع من الذكاء والتكتيك .

وهكذا فإن الخرافة الرومانية نظرت إلى الأمر نظرة طبيعية ، في حين أن الخرافة الإرلندية نظرت إلى الأمر نظرة سحرية ، وذلك ابتداءا من النقطة التى أدخلها الرومانيون إلى الخرافة والمتضمنة وضع بطل راشد مكان بطل طفل ، كما أنهم قدموا بطلا عاديا وليس بطلا يتمتع بسلطة سحرية . وعليه فليس لدينا جدول من الإختلافات ولكن سلسلة من الإختلافات الواحدة تتلو الأخرى .

وأخيرا فإن تحليل دميزل يحاول أن يبين ماهي شروط هذا التحول الذي عرفه المجتمع الروماني .فمن خلال الخرافة الإرلندية نلاحظ أن هنالك مسار مجتمع يرتسم ، مسار قائم على تنظيم عسكري يقوم أساسا على أفراد يملكون قوة وسلطة منذ ولادتهم ، وإن قوتهم العسكرية مرتبطة أو متحالفة مع نوع من السلطة السحرية أو الدينية .

وفي مقابل هذا نجد أن الخرافة الرومانية تظهر السلطة العسكرية بمظهر السلطة الجماعية ، فهنالك ثلاثة أبطال ، ليسوا أكثر من موظفين بشكل ما أرسلوا من طرف السلطة ، في حين أن البطل الإرلندي أخذ المبادرة بنفسه ، معنى هذا أن التحول الذى أحدثه الرومان للخرافة القديمة الهندو- أروبية ، تحول ناتج عما أصاب المجتمع الذي كان يتكون أساسا ، أو على الأقل بالنسبة إلى الفئة العسكرية ، من أفراد أرستوقراطيين ، إلى مجتمع حيث التنظيم العسكري تنظيم جماعي وإلى حد ما ديموقراطي .وهكذا وكما ترون ، فإن التحليل البنيوي لا أقول يحل مشكلة التاريخ الروماني وإنما يتمفصل بشكل مباشر جدا مع التاريخ الفعلي للعالم الروماني.

يرى دوميزل أنه لايجب البحث في الخرافتين عن إنتقال حدث وقع في السنوات الأولى من تاريخ روما، إلا أنه في الوقت الذي يبين فيه مخطط التحول من الخرافة الإرلندية إلى الخرافة الرومانية يبين كذلك مبدأ التحول التاريخي الذي حصل في المجتمع الروماني ، ونقله من مجتمع قديم إلى مجتمع دولة .

وهكذا وكما ترون فإن التحليل البنيوي لدوميزل يمكن أن يتمفصل والتحليل التاريخي . وبالإعتماد على هذا المثال يمكن أن نقول أن التحليل يكون بنيويا عندما يدرس التحولات والشروط التى تتم فيها هذه التحولات بالفعل .

والأن بودي أن أقدم مثال مغايرا ، لأبين كيف أن منهجا مستخدم اليوم من طرف المؤرخين يسمح بإعطاء معنا جديد لمفهوم الحدث . لقد كان من العادة أن نقول أن التاريخ المعاصر يهتم بشكل قليل بالأحداث وبشكل كبير ببعض الظواهر العريضة والعامة ، والتى تعبر بشكل ما الزمن .

ولكن ومنذ فترة بدأنا نمارس تاريخا ، يقال عنه أنه تاريخ السلاسل ، حيث الحدث اومجموع الأحداث تشكل موضوعه المركزي . إن هذا التاريخ لايقدم موضوعات عامة ومشكلة سلفا ، كالإقطاعية أو تطور الصناعة في بلد من البلدان . إن تاريخ السلاسل يحدد موضوعه إبتداء من مجموع الوثائق التى يملكها . وعلى هذا الأساس درسنا خلال العشرية الماضية ، الأرشيف التجاري لمناء " سيفي " في منتصف القرن السادس عشر ، وكل ما يتعلق بدخول وخروج السفن من حيث عددها وحمولتها وثمن بضاعتها وجنسياتها والمكان الذي قدمت منه والذى ستذهب إليه .

إن هذه المعطيات هي التى تشكل موضوع الدراسة ، وبكلام آخر فإن موضوع التاريخ لم يعد معطى في شكل مقولات مجسدة في حقب وعصور وأوطان وأمم وقارات أو أشكال من الثقافات ...إلخ .لا ندرس إطلاقا إسبانيا وأمريكا في عصر النهضة ، ندرس ـ وهذا هو الموضوع الوحيد للتاريخ ـ كل الوثائق المتعلقة بحياة مناء سيفي من تاريخ معين إلى تاريخ معين .

والنتيجة، وهي الميزة الثانية لتاريخ السلاسل، هي أن دور هذا التاريخ ليس أبدا الكشف ومن خلال الوثائق عن شيء كالتطور الإقتصادي لإسبانيا مثلا . إن هدف البحث التاريخي هو إقامة جملة من العلاقات إنطلاقا من الوثائق المعطاة . وهكذا أقمنا تقديرات إحصائية سنة بسنة لدخول وخروج البواخر وتصنيفها حسب البلدان وتوزيعها حسب السلع . وبذلك أستطعنا رسم منحنيات التطور ومختلف تقلباته ، كالنمو وعدم النمو أو الركود ووصف الدورات كماإقامة جملة من العلاقات بين مختلف الوثائق المتعلقة بمناء سيفي والوثائق الأخرى الخاصة بنفس موانىء جنوب امريكا وجزر الأنتيل وانجليترا وموانىء البحر الأبيض المتوسط .

وكما ترون فإن المؤرخ لا يؤل الوثائق لكي يحدد الواقعة الإجتماعية أو

الفكرية التى تختفي فيها ، إن مهمته تقتضي معالجة سلسلة من الوثائق المتشابهة أو المتجانسة والخاصة بموضوع محدد في حقبة محددة ودراسة العلاقات الداخلية والخارجية لهذه المدونة التى تشكل نتيجة عمل المؤرخ .

وبفضل هذه الطريقة ، وهنا تكمن الميزة الثالثة لتاريخ السلاسل ، يمكن للمؤرخ أن يظهر أحداث لايمكن لغيره أن يظهرها . ففي التاريخ التقليدي نعتبر أن ماعرف وما شوهد وما هو مرجعي بشكل مباشر أو غير مباشر هي الأحداث ، وأن عمل المؤرخ يكمن في البحث عن السبب أو عن المعنى . فالسبب والمعنى مختفيان بالضرورة ، اما الحدث فهو ظاهر حتى وان كنا لا نملك الوثائق الكافية لاقامته بشكل ثابت .

اما تاريخ السلاسل ، فيسمح بإظهار وبشكل ما ، طبقات مختلفة للحدث ، بعضها مرئي مباشرة ومعروف حتى من طرف المعاصرين له ثم وفوق هذه الأحداث التى تتشكل بطريقة ما ، هنالك أحداث أخرى غير مرئية أو غير مدركة من طرف المعاصر ين والتي لها شكل مختلف .

لناخذ من جديد عمل "شوفي" ، ماذا نلاحظ ؟ هنالك دخول وخروج البواخر من ميناء سيفي وهو امر معروف للمعاصرين الذين عاشوا في سيفي ، لذا يمكننا ان نعيد تشكيل هذا الحدث من جديد ومن دون عناء . ولكن فوق هذه الفئة من الاحداث، هنالك نمط من الاحداث اكثر صعوبة ، احداث غير مرئية بشكل دقيق وبنفس الطريقة من طرف المعاصرين لها مادام لهم مستويات مختلفة من الوعي، حول انخفاض وارتفاع الاسعار مثلا ، ثم فوق هذه الاحداث هنالك احداث يصعب موضعتها والتى بالكا د يمكن ان يدركها المعاصرين لها ، والتي لاتشكل انفصالات مقررة ، كتحول اتجاه ما ، والنقطة التى تجعل المنحنى الاقتصادي نامياوساكنا او راكدا او متراجعا ، مع الاهمية التى تكتسيها هذه المسألة في تاريخ مدينة او بلد وبالطبع حضارة ، ولكن المعاصرين لها لايستطيعون ادراكها او اخذها في الحسبان.

ونحن انفسنا مع كل قدراتنا الوطنية ، لا نعرف انقلاب المنحنى الاقتصادي او الوجهة الاقتصادية ، وحتى الاقتصاديون انفسهم لايعرفون ان كانت نقطة توقف ما في المنحنى الاقتصادي، دليل على تحول كبير وعام للاتجاه ، او مجرد توقف وانها ليست الادائرة داخلية ضمن الحركة العامة . ان على المؤرخ ان يكشف عن هذه الطبقات المخفية ، وهي بدون شك طبقات عميقة ومقررة لتاريخ العالم . ذلك

اننا نعرف اليوم ان انقلابا في توجه اقتصادي ما ، هو اهم بكثير من موت ملك ما .

وبنفس الطريقة ، يمكن ان ندرس مثلا النمو الديموغرافي للأوربا ، والذي كان ثابتا نسبيا خلال القرن الثامن عشر ثم ارتفع بشكل مفاجيء في القرن التاسع عشر ، وهو ما جعل جزئيا امكانية حدوث تطور صناعي في اوربا في القرن التاسع عشر ، الا ان احدا لم يعايش هذا الحدث مثلما عايش ثورة 1848.

كما انه بدأنا البحث في أشكال التغذية للشعوب الأروبية في القرن التاسع عشر ولاحظنا أنه في لاحظة ما ، أن كمية البروتيين الممتصة من طرف الشعوب الأروبية بدأت تظهر فجأة ، وإنه لحدث جليل وهام بالنسبة لتاريخ الإستهلاك وتاريخ الصحة وتاريخ التعمير (أو إطالة العمر).إن الإرتفاع المفاجيء لكمية البروتيين الممتص من طرف شعب ، يعتبر أكثر خطر من تغيير دستور أو الإنتقال من مملكة إلى جمهورية مثلا . وإنه حدث ، ولكنه حدث لايمكن أن نتحصل عليه بواسطة الطرائق التقليدية ، وإنما بواسطة تحليل السلاسل تحليلا متوصلا ، وتحليل تلك الوثائق التى لا نعير لها في الغالب إنتباه أو نهملها .

وهكذا نرى أن تاريخ السلاسل لايعني تذويب الحدث في صالح التحليل السببي أو تحليل المضمون ولكنه محاولة للكشف عن طبقات الأحداث التي تتضاعف .

وينتج عن هذا ، نتيجتين كبيرتين ومترابطتين : الأولى هي أن الإنفصالات في التاريخ ستتكاثر ،وتقليديا المؤرخون يرصدون الإنفصالات في أحداث كاكتشاف امريكا أو سقوط القسطنطينية . وحقيقة فإن أحداث كهذه يمكن أن تسجل إنقطاعات ولكن الإنقلاب الكبير على سبيل المثال للتوجه الإقتصاد الذي كان متطورا في أروبا في القرن السادس عشر ثم أستقر ، ودخل في مرحلة التراجع في القرن السابع سجل أنقطاعا أو أنفصالا لم يكن معاصرا للأول ومن هنا ، يظهر التاريخ لا كتواصل كبير ضمن إنفصال ظاهر ولكن كتسلسل لإنفصالات متراصة .

والنتيجة الثانية هي أننا مظطرون وفقا لهذا ، إلى الكشف داخل التاريخ عن أنماط مختلفة من الحقب . ففي الأسعار هنالك مثلا الدورة القصيرة حيث الأسعار ترتفع بعض الشيء ثم تصل إلى سقف ما ، فتنزل قليلا أو تصعد وهكذا ... إنها دورات قصيرة يمكن عزلها ولكن فوق هذه الدورات القصيرة هنالك دورات أكثر أهمية والتى تصل إلى خمسة عشرة سنة أوعشرين سنة أو خمسين سنة ، ثم هنالك ماهو أكبر ، أي أنواع كبيرة من الدورات تتراوح بين ثمانين سنة أو مائة وعشرين

سنة ، وهنالك فوق هذه الدورات مايسمه الفرنسيون بالأحداث الساكنة بمعنى تلك الأحداث التى تتجاوز القرون كالصناعة الزراعية في أروبا والتى بقيت ساكنة أوجامدة وذلك منذ القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر وهكذا ، فتحث دورات الإقتصاد الزراعي توجد دوارات كبيرة ثم صغيرة وهكذا ...

يعني هذا أن التاريخ ليس حقبة واحدة بل كثرة من الحقب المتوالية والمستترة الواحدة خلف الأخرى . لذا وجب إستبدال المفهوم القديم للزمن بمفهوم تعدد وتكاثر الحقب ، وعندما يقول خصوم البنيوية :(إنكم تنسون الزمن) هؤلاء الخصوم لا يريدون الأخد بعين الإعتبار بأن هنالك وقت ليس بالقصير ، حيث تخلى فيه التاريخ عن الزمن ، أو بمعنى آخر لم يعد المؤرخون يعترفون بهذه الحقبة الكبيرة والوحيدة والتى تحمل بحركة واحدة جميع الظواهر البشرية ، فمنذ بداية التاريخ ليس هنالك هذا الشيء كالتطور البيولوجي الذي يحمل جميع الظواهر والأحداث ، هنالك فقط حقب متعددة وكل حقبة تحمل نمطا من الأحداث ، وهذا هو التحول الذي يحدث الآن في فروع التاريخ.

وهكذا أصل إلى الخاتمة ، وإني أعتذر عن هذه الإطالة والتأخير ، أعتقد أن بين التحليلات البنيوية للتغير والتحول والتحليلات التاريخية لأنماط الأحداث وأنماط الحقب ، هنالك لا أقول هوية أو حتى تقارب ، ولكن هنالك جملة من نقاط التماس المهمة سأشير إليها وأنهي الموضوع .

عندما يتناول المؤرخون الوثائق ، فهم لايتناولونها من أجل تأويلها ، بمعنى أنهم لا يبحثون عن معنى خفي خلف أو وراء الوثائق ، إنهم يتناولون الوثائق في إطار نسق العلاقات الداخلية والخارجية .

وبنفس الطريقة ، فإن البنيوية- عندما تدرس الأساطير والأدب فإنها لاتبحث في هذه الأساطير أو في هذا الأدب عما يمكن أن يعبر عن عقلية حضارة أوتاريخ فرد ، إنها تحاول أن تبين العلاقات ونسق العلاقات الخاصة بهذا النص أو بهذه الأسطورة . فرفض التأويل أو التفسير الذي يكمن خلف النصوص أو الوثائق هو العنصر المشترك الذي نجده عند البنيويين وعند المؤرخين المعاصرين .

والنقطة الثانية كما أعتقد ، هي أن البنيويين كالمؤرخين توصلوا من خلال أعمالهم إلى إهمال ذلك المجال البيولوجي الكبير والقديم في الآن نفسه للحياة والتطور . فمند القرن التاسع عشر ، إستعملنا كثيرا فكرة التطور والمفاهيم المرافقة لها من أجل رسم وتحليل مختلف التغيرات في المجتماعات البشرية أو في

ممارسات ونشاطات الإنسان .

إن هذه الإستعارة البيولوجية التى مكنتنا من تفكيرالتاريخ قدمت فائدة إديولوجية وأخرى إيستيمولوجية . الفائدة الإبستمولوجية هي أنه أصبح لدينا في البيولوجيا نموذج شارح ، يمكن تحويله إلى التاريخ كلمة بكلمة ، وكان الأمل في هذا العمل هو أن يصبخ التاريخ تطوري وأن يصبح بالتالي علميا كالبيولوجيا .

أما الفائدة الإديولوجية فسهلة المعاينة ، وهي أنه إذا كان صحيحا أن التاريخ في حقبة ما يماثل الكائن الحي ، وإذا كانت عمليات التطور هي نفسها في الحياة وفي التاريخ ، فمعنى هذا أن المجتمعات البشرية لاتملك خصوصية خاصة بها ، أو بمعنى آخر إن المجتمعات البشرية ليس لها مسارات و لا تحديدات ولا تنظيمات أكثر من الحياة ذاتها . وبما أنه لاتوجد ثورة عنيفة في الحياة وإنما هنالك تراكم بطيء لتحولات صغيرة وبسيطة ، فإن الأمر نفسه يحدث في التاريخ البشري ، فهو لايحمل في ذاته ثورات عنيفة وإنما فقط تغيرات بسيطة لاتدرك . وبوسطة هذه الإستعارة البيولوجية التى تحيل التاريخ إلى أنواع الحياة نضمن أن المجتمعات البشرية لاتعرف الثورة .

أعتقد أن البنيوية والتاريخ يسمحان لنا ، بترك هذه الأسطورة البيولوجيا للتاريخ والحقب. البنيوية بتحديدها للتحولات والتاريخ بوصفه لإنماط الحقب المختلفة ، يجعلان من الممكن من جهة، ظهور الإنفصالات في التاريخ ومن جهة اخرى ،بظهور التحولات المنظمة والمنسجمة . البنيوية والتاريخ المعاصر أدوات نظرية بواسطتهما ـ وفي مقابل الفكر القديم للإتصال ـ يمكن أن نفكر حقيقة إنفصال الأحداث وتحول المجتمعات .